حول تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا

للدكتور أحمد سعيدان

لا غرو أن دعوات كثيرة قد انطلقت، وما تزال تنطلق ، من أفراد وهيئات ومؤتمرات ، تدعو الى تعريب التعليم وتعريب العلم والتكنولوجيا، وان هنالك أفرادًا وجماعاتٍ يَضيقون ذرعا بهذه الدعوات، فيعارضونها ويطرحون في المعارضة حججا وآراء جديرة بالتأمل والتفكير . وإنَّ دعوات الداعين ونواهي الناهين تصطبغ احيانا بصبغة انشائية خطابية أو عاطفية انفعالية تنأى بها عن رزانة القرار الحكيم المسؤول؛ وهي تكادُ دائما تَصْدُر مِن منطلقات متعددة متباينة : فهي تارةً قوميةٌ وطنيّة ، وتارةً فقهيةٌ لغوية ، وهي احيانا تاريخيّةٌ أو اجتماعيةٌ ، وكثيرا ما تتعارض أو تتشابك أو تتناقض، حتى لتكاد تضيع الحُجّة، وتحتجب الشجرة بأغصانها ، كما يقولون .

واني لأَهمُّ أن أقول إنني عازم على أن أنحو في عرض القضية منحى موضوعيًّا، لولا اني اجد في من تَعَرَّضوا للقضية مَن يَستهلّون البحث بزعم كهذا، ثم هم يُغرِقون السامع أو القارىء في متاهاتٍ من مغالطاتٍ ومتناقضات، كفريق يضرب على غير هدى، او يدور في دوّامة .

وكيلا أضربَ على غير هدى او أدور في دوّامة سأجنح الى النَّهْج العلميّ، فأحاول تحليل الموضوع الى عناصر متميزة بعضها عن بعض ، ثم ألقي نظرة على هذه العناصر متفرِّقة ، لأَخلُص من ذلك الى موازنة عامّة، فيها حساب الربح والخسارة، وكشف الحساب، وفيها خطّة واقتراح وبناء .

ولو كان ما نجابه عبـارةً جَبْرية او مُرَكّبًا كيماويًّا لوجدنا على الغالب نَهْجًا تقليديًّا لتحليله الى عناصر متميِّزة ؛ ولكننا نُجابِهُ قضيّةً تعيش معنا وتنطوي على واقع ماثل امامنا،يقوم على جذور ضاربة في اعماق تاريخنا،ويمتدّ الى كثير من خُطَطنا وتطلّعاتنا . فليس ثمّة، على ما اعلم،نَهْجٌ لتحليله الى عناصر سوى إنعام النظر فيه من زوايا مختلفة محدَّدة .

الزاويـة التربويـة :

وأَولى الزوايا المحدَّدة التي مِنها أَنظرُ في الأُمر هي الزاوية التربوية،التي قَلَّما أَولاها مَن تعرَّضوا للأمر ما ينبغي من عناية واهتمام .

إنَّ عملية التعليم عمليةٌ تربوية ؛ فطبيعيٌّ ان ننظر في تعريب التعليم من الزاوية التربوية المحضة.وتعريبُ التعليم يعني عندنا في الأُردن تعريب التعليم الجامعيّ،ويَنْصَبُّ على التعليم في الكُلّيّات العلمية. وهذا ما أَحصُر البحثَ هُنا فيه،وإنْ كنتُ اعلم انَّ التعليم غيْرَ الجامعيّ يَفتقر في اقطارٍ اخرى عربيّةٍ الى التعريب . وفي مستَهَلّ حديثنا عن تعريب التعليم في الكُلّيات العلميّة طبيعيٌّ ان نَستذكِر ماذا نبغي من التعليم في هذه الكليات .

إنَّ إعطاء الطالب معارفَ وخبراتٍ تُمَكِّنُه من اجتياز امتحاناتٍ معيَّنة،ومن ممارسةِ مهنةٍ محدَّدة يؤهِّلُه تخصُّصه لها،ليس وحده الهدف من التعليم الجامعي؛اذ لَعَلَّ ما في كُتبٍ محدودة قليلة العدد ما هو اكثر واوفى مِمّا يُعطي المحاضرون في الجامعة ؛ ولعلَّ في خبرةٍ هندسيَّةٍ ياخذها الطالب من بناء،او خبرة حسابيّة يفيدها من مصرف ما،يربو على الخبرة المقنَّنَة التي تُعطيها الأُعمال المخبرية الجامعيّة في أوضاع افتراضيَّة مصطَنَعة .

ان الجامعة جَوٌّ اكاديميّ مثاليّ،يمارِس فيه الطالب الحياة الموضوعيّة المنظّمة المُضَبَّطة بحرّية راي،وحرية تصرّف في حدود الموضوعية والنظام والانضباط،وعلى نحو يُستَهدِف ان يبني الطالب

نفسه بنـــاءً متكاملا، تبرُز فيه شخصيّته، ونلمَس بــه مواهبه الكامنة، ويغدو بــه مواطنا صالحا، إيجابيًّا غير سلبيّ، قابــلا للتفاعل مع مَن حوله وممارسة القيادة والريــادة ، على خلفيَّةٍ من المميزات والقيَـم التي تسود في المجتمع الــذي سيعيش الطالب فيـــه .

في ضوء هــذه الأهداف نسترجع للذاكرة واقــعَ الكلّيات العلمية المتوافرة، او التي يُمكــن ان تتوافر على ارضنا، فتُمثّل امامنـــا ثلاثة انواع من هــذه الكليات :

اولا : كُلّيات اجنبيةُ اللغـــة والطابع، كالكليات الانكليزية والامريكية التـــي نعرفها ؛ لغـــةُ التعليم والمعاملات والحديث فيها غـــيرُ العربية ، حتى يندر أن تجـــد فيها اثنين يتكلّمان بالعربيـــة .

يَدخُلُها الطالب العربـــيّ فيصدمه فيها أمران : لغـــةٌ لا يُتقن فهمها ولا التحدُّث بهـــا ، وبيئةٌ لا يألفها . فاذا هـــو تكيَّفَ مع البيئة وعَجَّل في اتقان اللغـــة، سارت معه الريح رخاءً، ومضت امـــوره بأمان في جَـــوٍّ اكاديمي مثاليّ خصب . امـــا اذا هو تَعثَّرَ في هذا او ذاك، فقد ينقطع بـــه الحبلُ في وَسَط الطريق، وقـــد يُبلغ نهاية الشوط خائرَ القـــوى مُقطَّع الأنفاس .

ونُظلم هـــذه الكلّيات اذا لم نَعترِف بانهـــا تُحقّقُ لابنائنا معظم الأهداف التـــي استرجعناها فيما سبـــق .

ولكنّنا نظلم انفسنـــا اذا لم نعترف ايضا بانها تَصْدُر عن قِيَـــمٍ واخلاقياتٍ لا تنبعث مـــن بيئتنا وجذورنا التاريخيـــة، وانّها تُعِدُّ الطالب لمجتمـــعٍ غير المجتمع الذي سيعيش فيـــه .

لقد خَرَّجت لنـــا هذه الكلّيات نفرا من خـــيرة ابنائنا وقادة الفكر فيما بيننـــا ؛ ولكنّها اجنبية ، فهي لغيرنـــا، ادارتُها ليست بيدنا، وسياسَتُها ليســـت مِن صُنعنا، وان من حقّنـــا ، كسائر شعوب الارض ، أن يكون لنـــا جامعاتُنا التي تُنشأ بمالنـــا، ويديرها رجالنا، ويملؤها ابناؤنا، وتُرْسَـــم سياستها في ضوء حاجاتنـــا وخططنا وتطلُّعاتنـــا .

انطلاقا من هذه الحاجة ظَهَرَ بيننا النوعُ الثاني من الكليات،وهي :

ثانيا : كلّياتٌ عربيةُ الوجه واليـــد واللسان :

قـــد يدور في خَلَدنا انَّ هذه الكلّيات تُحَقِّق كلَّ مـــا تحققه الكليات الأجنبية وتزيد على ذلـــك ، اولاً لأنّ الطالب العربـــي أكثرُ استيعابا للمعرفة بلغتـــه،ومن ثَمّ فهو اعمق فهمًا واَولـــى بالابداع،وثانيًا لأنه لـــن يُضيع وقتًا وجهدا في اتقان لغـــةٍ جديدة؛وثالثا لأنّ الكلية تُعِدُّه لمجتمعنا العربـــي،وتُنَشِّئُه على خَلفيّة مـــن قِيَمنا واخلاقنا وبيئتنـــا وتراثنـــا .

ولكن الواقعَ غـــيرُ ما نتوقّع ، لا في الكلّيات العلميـــة ولا في الكلّيات الانسانية أو غيرهـــا من الكليات . ذلك ان العلـــم ينمو في هذا العصر على نحـــو يوصَف بالتدفّق او التفجُّر ؛ ومع نمـــوّ العلم وتَدفُّقه يمضي تطـــوُّرٌ مناهجه بسرعةٍ فائقة،حتـــى ايندر ان يعيش كتابٌ علمـــي صالحًا دون حاجة الى تعديل ، اكثـــر من خمس سنوات . وهو ينمو مـــادةً ومناهجَ على أيـــدٍ غير عربيّة،وتُعبِّر من الجديد فيه والتجديد ألسِنَةٌ غيرُ عربية ، في دوريّات كثيرة اجنبية .

فالكلّيات العلميـــة التي جَعلَت العربيَّةَ لغـــةَ التداول والتعليم، حَجَبَتْ نفسها عـــن منابع العلم،ولذا ما لبثت ان وُقِفَـــت بمعزل عن تيّار التطوّر،سواء في المـــادة العلميّة والتعليميـــة ، ام في اساليب عرضها ، بـــل في اجهزة البحث والتدريس . انَّ جُلَّ ما تنتجـــه هذه الكليات إنمـــا هو اجترار وتكـــرار .

هـــذا واقعٌ كُلُّ مَن يُدرك التطوُّر العلمـــيّ المعاصر لا يستطيع إنكاره ؛ ولقد قـــال قائلون جَدَلاً إنَّ القِلَّـــة القليلة من خريجي هذه الكليات هي وحدهـــا المؤهَّلة للاستزادة من العلـــم،وهي وحدها التي ستحتاج عندمـــا تستزيد الى اتقان لغـــة اجنبية ، وعندها نَدْفَع بها الـــى موطن هذه اللغة . وهـــذا قولٌ يَنمّ على سطحية وسذاجة ؛ فالعلـــم الحديث ليس حِليَةً يَتَحلّى بهـــا من يقدر

او من يشاء،ولكنه حياةٌ وطريقةُ حياة،تلمَسها في البيت والمدرسة والمكتب والشارع وكل مكان، وينبغي ان تجِدها لدى المعلم والطالب على السواء . حتى الكلّيات الانسانية، التي مادتها عربيّةٌ في كل شيء، قد تحَجَّرت لانها افتقرت الى المنهجية التي نلمَسُها واضحة في الكتب الأجنبية المتقدمة ، والتي بدونها قلّما يكتمل بحث او تكتمل دراسة .

وهنا امران يتَبَرَّم بهما جُلّ الحادبين على العربيّة، الداعين الى استعمالها في كلّ مراحل التعليم : احدهما الحديث عن هذا التدفُّق السريع في المادة العلمية واساليبها، وثانيهما هذه المنهجية التي ازعم اننا نفتقدها في الكتب العربية ؛ فقد يَحْسُن الاّ نُمرّ بهما سراعا دون مزيد من التوضيح .

امّا عن تزايد المعرفة، فيكفي أن نشير الى أن مؤسسة اليونسكو نشرت قبل حوالي عشر سنوات احصائيةً تشير الى أنّ مطابع العالم تُخْرِج في كلّ اربعين دقيقةً مِن الكلام المطبوع ما لو جُمِع في كتاب واحد لبلغ هذا الكتاب أربعةً وعشرين مجلّدا ، كلٌّ منها بحجم المجلَّد الواحد في الموسوعة البريطانية المعروفة ؛ وانّ ما تُصدِرُه هذه المطابع في اليوم الواحد ينطوي على اكثر من خمسين مصطلحا علميًّا جديدا، لم يكن له قبل يوم واحد وجود .

ولعلمي أن الناس يَنْسَون، ادعو القارىء الى أن يتذكَّر كيف كانت وسائلُ المواصلات، مثلا، قبل ثلاثين عاما، وكيف هي اليوم . إنَّ الذي مَكَّن لهذه الطفرة الواسعة انما هو فيضٌ من المنجَزات العلمية والتكنولوجية، نَقَلَت العالم من عصر الكهرباء الى عصر الطاقة النووية والحاسبات الالكترونية وسباق الفضاء .

وهذه المنجَزات لم تُحَقِّقْها عقول عربية، ولم تُفَصِّلْها لنا كتب عربية ، وهي المادة العلمية التي تُسَيِّر حياة العصر وتزحم مناهج الدراسة، وبتطوُّرِها تَتَغَيَّر الحياة، وتتبدَّل المناهج. ونحن لا

نملك حيالها الا ان نقف تلاميذ مستقبلين؛ هذا اذا اتيح لنا ان نفتح النوافذ لاستقبالها ، فان لم نفعل فذلك هو التقوقع الذي لا يلبث ان ينجلي عن تخلف من فاته القطار .

هذه حقائق ، لا مبالغة فيها ولا سبيل الى تجاهلها او انكارها ؛ وإنّ من الخير ان نضعها نصب أعيننا اذا كنّا نتطلع الى تخطيط محكم فعّال .

سيقول قائل : إن دخول العربية من الباب لا يعني هَرَبَ الانكليزية، مثلاً، من الشباك . صحيح انه لا يعني ذلك ، فلا لزوم لان تهرب اللغة الأجنبية لأنها لم توجد اصلا ، الا اذا حسبنا ان الفيزيائي الذي يقضي عمره يدرّس الفيزياء في كتب عربيّة يسهّل عليه فهمها في مراجع اجنبية . كلاّ ، حتى لو كان يتقن اللغة الأجنبية قراءة وحديثا . ليس صحيحا عندنا ان العِلْم ليس له لغة؛ وإن خبرتنا في الجامعة الاردنية لدليل ماثل على ذلك .

أما المنهجية التي اشرتُ اليها فهي اسمٌ آخر للطريقة العلمية في البحث والاسلوب العلمي في عرض نتائج البحث .

المنهجية اخلاق ؛ انها موضوعية تتوخى البحث عن الحقّ وحده، وتبحث عنه بلا هوى ولا نزق ولا انفعال، ثم تَعْرِض الحقّ، ولا شيء غيره ، بلا تكلّف ولا رياء ، ولا بهرجة ولا تلوين ، وباسلوب يعطي الكلمة حجمها الطبيعيّ، فلا يصف بالعَظَمَة الاّ من كان له منها نصيب ، ولا يُعَدُّ عظيما جدًّا الاّ مَن كان نصيبه منها وافرا ؛ المنهجية تعطي كلَّ ذي حقّ حقّه؛ فماذا عَرَض امرؤ نتيجة بحثه، ذَكَر من ساروا في الدرب قَبْلَه، وايـن وَصَلوا، وماذا حقّقوا ، ثم ماذا كان دوره هو، وايّ جديد حقّق ؛ والمنهجية امانة ؛ امانة تجاه الحقيقة، وتجاه القارىء والتاريخ .

ليس في المنهجية نفـاق ولا اسلوب خطابي ولا ،بالغـة ولا بهرجة كـلام غير ذي مضمون ، وليس فيها تلويـن للحقّ ولا تحريف لـه ولا افتراء عليه . ومـا احوجنا الى هذا كلّه في ما نقرأ ومـا نكتـب .

ولـم يَسْبق الغربُ الـى المنهجية : لقد بدأت بالاسـلام في عصوره الأولى عندما كـان رواةُ الحديث يَشدّون الرحـال، ويَقْطعون آلاف الفراسخ من اجـل التأكّد من نَصّ مـا نُسِبَ لراوية مـا . ولكنَّ المنهجية ضاعت في العصور الاسـلامية المتاخرة ، ولقيها الغرب في اواخـر القرن الماضي بعد معانـاة طويلة شهد فيها كثيرا مـن الافتراء وكثيرًا من الادعاء . وهـا نحن اليوم نَجدُها في البحوث العلميّـة الغربية،وفي الكتب العلمية الاوروبيـة، وكثيرا مـا نَفتقدها في البحوث والدراسات العربيـة . لقد جَمَعَ بيرسون في فهرسـه الاول كلَّ ما نُشِر في الدوريـات من بحوث ودراسات حول الفكـر الاسلامي،من مَطْلع هذا القـرن الى سنة ١٩٥٥ (المجلـد الاول) زهاء ٢٦ الـف بحث،ليس بينها بالعربية بحث واحـد تتوافر فيه عناصر المنهجيـة .

خوفًا من التقوقع،وحُبًّـا بالمنهجية،اختارت بعض الجامعـات العربية نوعا ثالثـا من الكليات العلمية،وهـي :

ثالثا : كليات عربيـة انكليزية :

لغـة الحياة والمعاملات في هذه الكلّيات هـي العربية ، ولكنَّ لغـة المحاضرات والدرس والامتحان هـي الانكليزية : فالكُتُب المقرّرة والمراجع انكليزية،وعلى هـذا فالباب مفتوح على مصراعيه لأحدث المناهج ، ولا خـوف عندنا من تقوقع أو تَحَجُّـر .

بعضُ الناس يَصعُب عليهـم ان يَروا الواقع ، وبعضُهـم يَصعب عليهم ان يَعترفـوا بما يرون،وهؤلاء جميعا قـد يَعْتَبون علي اذا قُلتُ إنَّ الطالب المتوسّط عندنا يفقد لغتـه ولا يتقن الانكليزية ،

بالضبط كالغراب الذي قلّد مشية غيره . اننا لم نضعه في جوّ يتعلّم فيه الانكليزية ، لا حديثا ولا كتابة ، وانما طالبناه أن يُفهم ما يقرأ وما يسمع . اما ما يقرأ فتلك مادة الكتب المقررة،يفاجأ بها الطالب منذ اللحظة الاولى،فتحدث لديه رعشة وفي نفسه مقدة ، وقلّما تزول تلك الرعشة،وقلّما تُحَلُّ تلك المقدة ؛ فلا ينبغي أن نحسب انه يَفهم ما يَقرأ فهمًا تامًّا ، ولكنّها صُورٌ لذلك المقروء تُرتسم في مخيلته،ومعها تصوراتٌ غائمة قَلِقَة لا تلبث أن تنمحي،فيغدو وكانه لم يقرأ شيئا .

وامّا ما يسمع الطالب في المحاضرات فقلّما يكون انكليزيًّا، وانما هو خليط من انكليزية سقيمة وعربية عامية،ومع ذلك رُبّما كان هذا الذي يسمعه هو وحده الذي يفيد منه الطالب في جامعته اذا هو احسن الاستماع،او اذا احسن المعلم الاداء ؛ لأنَّ طُلاّبنا قَلَّما يُرجعون الى المراجع لأنهم لا يفهمونها ، وقَلّما يُحسنون استعمال كتبهم المقرّرة لانهم لم يُهَيَّأوا لها ؛ وهم قَلّما يناقشون في المادة العلمية لانهم لا يحسنون الحديث بالانكليزية ، فما هي النتيجة ؟ يَنْضَمّون الى تلك الاكثرية الصامتة السلبية، التي تُجهِد نفسها في تحصيل بعض الفهم تحصيلا مؤقتا من اجل الامتحان،وينتهي بانتهائه .

جاءتني قبيل الامتحان طالبة في السنة الاولى في حالة هستيرية تقول : كُلُّ مسائل PERCENTAGE هي طلاسم بالنسبة اليّ،فَهلاّ افهمتني عمَّ تبحث ؟ قلت : الم تدرسي النسبة المئوية في الصف التوجيهي ؟ قالت بلى ؛ قلت ذلك هو ما تبحث فيه ؟

— صحيح ؟

— نعم

— اذن " PERCENT " معناها" في المائة" ؟

— بالضبط

— ما اغباني !

وفي الامتحان رايــت طالبا مضطربا يريد ان يستوضـــح معنى كلمـــة " Sphere ". وبعد الامتحان جـــاء الطالب يجادلني مؤكدا ان معلمـــه فسر الكلمة بمعنى"الجَـــوّ"فلما اكّدتُ له ان الجَـــوّ يقابلها بالانكليزية كلمـــة " Atmosphere " ، شعـــرت بالطالب كانَّ شبكـــة معقّدة قد انحلّت امـــام بصيرته .

سيقول قائل : هـــذا الذي تَصِفُه حالاتٌ فردية شاذّة،تُحدُث في مرحلة مبكّرة ولا تحـــدث فيما بعد ذلك.ولكنني اتمنّى لو ان احـــد المهتمّين بالامـــر كلَّف مجموعة من الطـــلاّب العلميين، في نهاية المرحلة او بعـــد التخرج،ان يكتبوا لـــه اسطراً قليلة ، بالانكليزية او العربية،في موضوعٍ مـــا يتعلّق بتخصُّصهم ؛ عندهـــا سيجد عجبًا . لـــي مع طالبٍ مَنَحْناه الماجستـــير في الرياضيّات قصةٌ عجيبة ؛ هـــذا الطالب لا اذكر اسمه ولكنّـــي لا انسى قصتي معه ، عَلَّمْتُه في كـــلّ سنة من سنوات دراستـــه للبكالوريوس،ولا اذكر انه في مرّة واحـــدة ناقَشَ او وَقَفَ لالقاءِ ســـؤالٍ او اقتراحِ حـــلّ . كان دائما مع الصامتين الذيـــن يحسنون الاستماع ، فاذا جاء الامتحان يُحلِّق مـــع المتفوقين .

ومُنِح الطالـــب البكالوريوس بدرجة"جيّـــد جـــدًّا "، وتقدم للماجستير،وكان مـــن نصيبي ان اعطيه مساقا من هذا المستوى . وكان من واجباته في هـــذا المساق ان يُعِدَّ تقريرا مكتوبـــا،وان يَشْرَح مادتـــه في الصفّ كيما نناقشه . وقـــد اكّدْتُ على الطلاب ان يُعِـــدَّ كلٌّ منهم تقريره بالعربية،كيما يجـــري النقاش بالعربية ؛ هذا بالرغم مـــن ان المراجع كلّها بالانكليزية . لقـــد اردتُ ذلك لأحولَ بين الطلاب وبـــين النقل الحرفي من المراجع ؛ لقـــد اردتُ ان يكون لهم دور اكثـــر من مجرَّد التلخيص . ولقد قـــام الطلاّب بهذه المحاولـــة،الاّ ان تقاريرهم كانت كمحاضراتِ اساتذتهم،خليطـــا عجيبا من العربيـــة والانكليزية ، الا هذا الطالـــب؛فَقُبَيْلَ الموعد المحدّد لمناقشة تقريـــره،جاءني يرجو ان يُقدِّم تقريـــره بالانكليزية

لانه لا يستطيع نقلـــه الى العربية . وحين اخـــذ الطالب يقرأ تقريره،مضى حوالي ربـــع ساعة حتى تأكّد لديَّ انـــه يتكلم حقًّا بالانكليزية،كان تقريره علـــى النحو الذي ألِفناه من طلابنـــا : فقرات مقتبسة من المرجـــع او المراجع،ولكنَّ الفـــاظ الطالب كانت عجيبة ، لا تَمُتُّ الى ايـــة لغة ؛ حتى تلك الالفاظ التي تتكرّر في كـــلّ محاضرة في موضوع تَخَصُّصِه ؛ لقـــد سمعها اكثر من مائـــة مرة من عدد من المحاضرين ، ولكنْ لـــم يتقن لفظها،فلَفَظَها بطريقـــة مضحكة تبعث في النفس السخريـــة ؛ والتفسير واضح : لقد كـــان الطالب يَحضر المحاضرات ويصغـــي ، ولكنَّ فكره كان مشغـــولا؛كان يُعَوِّل على ان يحفظ صُوَر المـــادّة التي يجدها في الكتاب،فيعيد رسمهـــا على نحوٍ ما في الامتحـــان ؛ ولو كان اعمق من ذلك فهمًالمـــا عجز من نقـــل المعاني الى لغتـــه .

والنتيجةُ واضحة،أنّنـــا لم نُخَرِّج فيه طالبـــا يستطيع ان يكون مواطنا صالحا،يفيـــد مجتمعه بعلمه وتَخَصُّصِه ، لا بالعربيـــة ولا بالانكليزية ولا بخليـــط من اللغتين ، ولا خرّيجًا يُمْكِـــن في ايّ مجتمع ان يُعْطِيَ عـــن جامعته فكرة طيبة .ومـــا اكثر الدلائل على ان القلّة من خرّيجينا هـــم احسن حالا من هـــذا الطالب .

إنـــي أُقَدِّرُ لزملائي في الكليات العلميّـــة جهودهم،ولا يدور في خلدي لحظةً انْ أنتقِص مـــن هذه الجهود وهذا الجهـــاد ؛ ولكنَّ النقد الذاتيَّ دليلُ عافيـــة،والاعتراف بالواقع علامةُ قـــوّة،والتطلّع الـــى الأحسن والعمل مـــن اجله بشيرُ صحة.وانّ من القـــوّة والصحة والعافية ان نراجـــع مواقفنا،ونتبيّن مواقـــع اقدامنا .

مـــا العمـــل ؟

تُقَصِّر الكلّيات العربيـــة والانكليزية عن تأدية رسالتهـــا كما ينبغي، لانها لا تُهيّىء الطالب للفهـــم والتفاعل مع العلم الـــذي يتعلّمه،بحيث يصير هذا العلم جزءًا مـــن شخصّيته وكيانه وحياتـــه ؛ ففي كنفها يعيش

الطالب بشخصيتين : شخصية عربية حياتها ومعاملاتها بالعربية ، ولكنْ لا يتعلم بهذه اللغة، ومن ثَمَّ فَعِلْمُه ليس عاملا على تهذيب لغة حياته ومعاملاته ؛ وشخصيةٍ محيَّرةٍ تُحاول ان تتعلّم بالانجليزية وهي لا تَفْهَمها، وتحاول ان تُعبِّر عن علمها بهذه اللغة فتتعثّر . انها ازدواجيةٌ ذات وجهين : وجهٍ ساذج لا يوجَدُ ما يَصْقُلُه، ووجهٍ متخاذلٍ لا يَجد ما يبعث فيه نفحةً من ثقة أو قبسا من قوّة .

وتُقصِّرُ الكلّياتُ العربية المحضة عن تأدية رسالتها كما ينبغي، لانها بمعزل عن ينابيع العلم . كان ينبغي ان يرافقَها جُهدٌ دائب لتعريب العلم ؛ اي تكوين اجهزة تَعْمَل باستمرار لنقل الفكر العلمي الى العربية ، كُتُبًا ومراجع ودوريات. وهذا يَقضي بإقامة مؤسسات للترجمة والتعريب، تقوم بجانب المؤسسات الاكاديمية التي تُعْنَى بتخريج المتخصّصين، سواء في العلم أو في التكنولوجيا ، حتّى يستطيع الطالب والمعلم على السواء ان يصلا الى ينابيع المعرفة بلغتهم انى شاءوا .

ولكنَّ اقامة مؤسسات الترجمة التي تُمدُّنا بما نحتاج اليه من كتب ومراجع ودوريات مترجمة ومعرّبة، مشروعٌ يقتضي عملا دائبًا غير منقطع، لن يؤتي أُكُله على نحوٍ مُرضٍ في اقلَّ من نصف قرن . فهل ننتظر خمسينَ عاما حتى تتكاثر لدينا الكتب المترجمة في شتى فروع العلم، ثم نبدأ بتأدية رسالتنا ؟ لا ، فهنالك بالتأكيد حَلٌّ وسط يُغني قبل تعريب العلم، ويمهِّد لتعريبه .

يقتضي هذا الحل الوسط ان يجري التعليم في الكلّيات العلمية على نحو كالآتي :

١ — في السنة الأولى الاكاديمية يتلقّى الطالب علومه الاساسية بالعربية وباستعمال كتب مترجمة ، أو غير مترجمة ، ويأخذ في كلّ فصل دراسي مساقا في اللغة الانكليزية ، يُعرِّفُه بالمصطلحات العلمية، ويزيده في هذه اللغة قوّة .

٢ ـ في السنة الثانية يُبدأ تخصُّص الطالب، وفيها يتلقى علومه بالعربيّة، الا مساقا واحدا في كل فصل يتعلمه بالانكليزية ، من موضوعات تَخَصُّصه .

٣ ـ في السنتين التاليتين يُجري تعليمُ الطالب بالعربية، مع التأكيد على استعمال مُراجعَ اجنبية ؛ على ان يأخذ في كلِّ فصل مساقا واحدا على الأقلّ من موضوعات تخصُّصه بالانكليزية . ويُنَظَّم استعمال الطالب للمراجع الأُجنبية بحيث يغدو الرجوع اليها من مستلزمات تَخَرُّجه .

اذا جرى في الوقت نفسه ترجمةُ الكتب العلمية بنشاط ، امكن تحقيق الهدف المنشود في وقت غير طويل .

اننا نعتقد انَّ مِثلَ هذا الحلّ الوسط اكثرُ فائدة للطالب العربي مما تنتجه الكلّيات العربية المحضة، والكلياتُ العربية الانكليزية ؛ وهو بالتاكيد اقلُّ خَطَرا . انه يَضْمَن تقويةَ الطالب باللغة الانكليزية ، ثم هو نَهْجٌ مرنٌ قابل للتعديل. ولعلَّ مما يَلزمنا في هذه المرحلة من حياتنا انْ نُقَوّيَ الطالبَ في لغتين، لا واحدة، بالاضافة الى اللغة الام .

الزاوية اللغوية :

اما وقد بان من الزاوية التربوية ايّ نَهْج ينبغي ان نسلك، فذلك هو القول الفصل .

ولكنَّ هنالك من يتساءلون : أتستطيعُ العربيَّةُ ان تَستوعِب لغة العلم والتكنولوجيا ؟

هل اللغةُ تَخْلِق الفكر ام الفكرُ يَخْلق اللغة ؟

وهنالك من يُجيبون، فيتحدّثون عن مرونة العربية واشتقاقيّتها ، ومن تجربتها السابقة. وفي طيّات هذا الحديث وذاك تَرِدُ اقوالٌ هي مثارَ جدل ونُقَطُ حوار . وهذه كلُّها في تقديري معاركُ جانبيّة لا تُقَرّ

ولا تنفع ، فلكلّ لغـــة خصائصُها وعبقريّتها ؛ ونحن نعرف مـــن خصائص اللغة العربية وطواعيّتهـــا للفكرة الدقيقة ما قـــد يَتّسع فيه مجال الحديث، ونخرج بـــه عما نستهدفه من هـــذه الكلمات .

ولكنَّ الخبرة الماثلـــة امامنا تشير الى انَّ لغـــاتٍ نجمت من لا شيء، وأُريدَ لها ان تنشـــأ وليس لها من الخصائص شيء ؛ ثـــم هي بإرادة اهلها استَوعَبَت لغـــة العلم والتكنولوجيا ، لـــم تَضِق بها ولم تَخْنُقها .

ان مئاتِ الأقطـــار في الشرق والغرب تُعَلِّـــمُ بِلُغاتها، وتُسْهم في خدمة العلم على قـــدر طاقتها، وتُحرز انجازات ؛ واكثرُ هـــذه الاقطار لم تكن لغاتها ولا طاقاتهـــا حتى وقت قريب ذاتَ وزن فـــي المقاييس العالمية .

ومن التساؤلات التي تثـــار : هل نترجم أم نُعَـــرِّب ؟

قـــد لا يكون هنالك قاعدة ذهبية عامّة اولـــى من قاعدة وضعها المجمع اللغـــوي في القاهرة، اذ قال : الاصطلاح العالمي نُعَرِّبُـــه ، اما غيرُ العالمـــي فنبحث له عن لفـــظ عربي .

وقد اعتبروا الاصطلاح عالميًّـــا اذا كان يُسْتَعْمَل فـــي الانكليزية والفرنسيـــة والألمانيـــة .

على أن الاستعمال هـــو وحده الحَكَم في هذه الامور: فقـــد يشيع بالاستعمال لفـــظٌ اجنبيّ، ويَسْقُط لفـــظٌ عربيّ ؛ وذلك كله حسب ذوق الناس واستحسانهم اللفـــظ او استجاباتهم لـــه .

يبقى أمر لا بـــد من ذكره لمـــن يتساءلون : هل تَتَّسع العربيةُ لغـــةً للعلم ، وأمام مـــن يجيبون تغزُّلاً بخصائصهـــا .

تُقَـــدَّرُ الكلمات المختلفة التي استعملهـــا شكسبير في مسرحياته بنحو ١٤ الـــف كلمة ؛ وعلى هذا نستطيع أن نَفْتَرض ان تلك هـــي سَعة اللغة الانكليزية في ايـــام شكسبير ، عندما كانت خلـــوًّا من الالفاظ العلمية، لانَّ لغـــةَ العلم في البلاد الاوروبية كانت مـــا تزال هي اللاتينية .

امـــا الآن فقد أُحصِيَتْ المصطلحـــاتُ الانكليزية التي تُسْتَعمل في حقل الطـــبّ العام وحده، دون فـــروع التخصص، فبلغت ٧٤ الفـــا .

ماذا يعني ذلـــك ؟ اذ نحسب ان اللغة الانكليزية قـــد اتسعت حتى بلغت المصطلحاتُ العلمية فيهـــا مئات الآلاف، تَسترعي انتباهَنـــا احصائيةٌ اخرى تشير الى انَّ معظم هـــذه المصطلحات هي نفسها فـــي الفرنسية والالمانيـــة . إنّ لغات البلاد المتقدّمة قـــد تفتّحت بعضُها على بعض، وتعاونت معـــا في استيعاب الأفكار العلميـــة .

ان العلم ينمـــو بأسرع ممّا تنمو اللغة ، بـــل بأسرع من خيال الشعراء ؛ وإنَّ كـــلّ لغة لتضيق عن استيعاب العلـــم او مجاراته . ولهذا تلهثُ اللغاتُ وراء العلـــم، ويَضيقُ العلماء بِلُغاتِها فَيلجأون الـــى الرمزيـــة يعبّرون بهـــا عن افكارهم .

امـــا رجالُ اللغة فيأخذُ بعضُهم مِـــن بعض دون تَحَرُّج، وهـــم يَعتَزّون بمـــا يأخذون ويُعَدّونه إثراء لِلُغتهـــم .

واني اتمنّى لـــو نَنْسج نحن على هـــذا المنوال، فنأخذ عن اللغات دون تَحَرُّج الفاظـــاً وطُرُقَ تعبير، ونُعَدّ ذلك إثـــراء للعربية نعتزّ بـــه ؛ وذلك كيما نواكب التقـــدُّم العلميّ، ونُساير الركب، ونعترف عمليّـــاً وواقعيّاً بأن اللغة كيـــان متطور .

هـــذا ما صَنَعَه اجدادُنا عندما قاموا بِنَقْل الفكـــر العالميّ الى العربية، وهـــاذا يضيرنا ان تأخذ العربيَّةُ من الـــدم العالمي الحديث كما اخذت في المـــاضي من الدماء الفارسيّـــة والهندية والإغريقية ؟

الزاويـــة القوميّة الوطنية :

اذا شئنا ان نتناول الموضـــوع من كلّ جوانبَه ، فلا بُـــدّ من النظر فيه من الزاوية القوميّـــة والوطنية . وهنا يَتّســـع مجال الحديث ؛ فحاملو لـــواء القوميّة والوطنية يقولون إن لغتنـــا هي هويّتنا، وهي مرآة شخصيّتنـــا العريقة المُمَيَّزة ، ثـــم ان الاسلام والعربية همـــا اللذان يحفظان للأمـــة وحدتها، رغم ظواهر التفـــرق والتشرذم التي تنجم

لاسباب سياسية . وعلى هـذا فهم يرون أن تعريب التعليم واجب قومي وطني، بـه نحافظ على هويّتنا وشخصيتنا، وبـه نقوّي روابط وحدتنـا .

ولكنَّ مِن النـاس مَن يجادلون، فيشيرون الى بـلاد متفرّقة رغم انها تتكلم لغـة واحدة، ويشيرون الى بـلاد مُتّحِدَة رغم ان فيهـا لغتيـن رسميتيـن .

وفي تقديري ان الخوض في هذيـن الرايين، وتفاصيل مـا لهما وما عليهما، يُخرج بنـا عن موضوع التعريـب .

وفي يقيني انّه لـو وقَف كلُّ اصحاب الراي ضـدَّ العمل من اجل وحدتنا وتوحيدنا، لوجـب ألاّ يعوق ذلك العمل من اجـل الوحدة، لان بهـا بقاءنا وتكاملنـا وقوتنا .

ولكنَّ لذلـك حديثا آخـر .